الباب الخامس

الفقراء (ما لهم.. وما عليهم)

فصل أول : من النظم الغير إسلامية. . .

فصل ثـانٍ : الجمع بين النصيحة والالزام!!

فصل ثالث : إلى الفقراء. . .

الفصل الأول

من النظم الغير إسلامية!!

من خلال نظرةٍ سريعة لموضوع الفقر في غير النظام الإسلامي نرى وباختصار :[1] .

١ـ عند اليهود :

كانت النظرة إلى الفقر هنا أنه حقيقة أزلية لا بدّ من التسليم لها ، وما هي إلا سنة كونية وظاهرة طبيعية ، لا يمكن القضاء عليها ، وذلك لعدم التساوي في الرزق ، إذاً ما الحل ؟!

جاءت التوراة بنصائح ومواعظ ـ ترغيباً وترهيباً ـ من ذلك :

«الرَّبُّ يفقر ويغني ، يضع ويرفع» (صموئيل الأول ٢/٨)

«ومن الله العلي مالك السموات والأرض» (سفر التكوين : ١٤/١٩)

«والمشتغل بأرضه يشبع خبزاً ، وتابع البطالين يشبع فقراً» (الأمثال ٢٨/١٩)

«والعامل بيد رخوة يفتقر ، أما يد المجتهد فتُغْني» (الأمثال ١٠/ ٤)

---

(١) للتوسع أكثر راجع اقتصادنا على ضوء القرآن والسنة: ٨٣ـ٩١.

«ومن يعطي الفقير لا يحتاج ، ولمن يحجب عنه عينيه لعنات كثيرة» (الأمثال ٢٨/ ٢٧)

«والفقير السالك باستقامته خير من معوج الطُّرق وهو غني» (الأمثال ٢٨/ ٦)

إذن : لم تقدم اليهودية وسائل عملية لمعالجة الفقر ، واكتفت بالنصائح والمواعظ ، وهي إقرار بواقع الطبقية والاعتراف بها . .

٢ـ عند المسيحية :

على المنهج نفسه سارت المسيحية ، فلم تقدم وسائل عملية ، إنما اكتفت بالمواعظ والنصائح ، تارةً للأغنياء ، وتارة للفقراء ، من ذلك :

«ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» (متى ٤/ ٤ ولوقا ٤/ ٤)

«لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً : (رسالة بولس إلى أهل رومه ١٤ـ١٧)

«ولكن الطعام لا يقدّمنا إلى الله ، لأننا إن أكلنا لا نزيد ، وإن لم نأكل لا ننقص» (رسالة بولس الرسول الأول إلى أهل كوزشوس ٨/ ٨)

«لتكن سيرتكم خالية من محبّة المال ، كونوا مكتفين بما عندكم» (الرسالة إلى العبرانيين ١٣/ ٥)

«فصلّوا أنتم هكذا ، أبانا الذي في السموات ، ليتقدّس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السموات كذلك على الأرض. . خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » (متى ٦/ ٩)

إذن : لم تكتف المسيحية بالمواعظ بل راحت تقدس الفقر وتشيد به!! كما يقول المسيح ـ عليه السلام ـ :

«إن من لا يتخلى منكم عما يملك لا يمكن أن يكون حوارياً لي» .

٣ـ عند الهندوكية :

تعتبر الهندوكية الواقع ـ بكل ما فيه ـ حقاً لا يجوز تغيره ، لأنه جزاء عادل على أعمال سابقة ، وذلك نتيجة إيمانها الراسخ بتناسخ الأرواح ، من هنا فالفقراء يجب أن يعلموا أنهم ما صاروا فقراء إلا لعمل ـ عملته أرواحهم ـ والتي كانت من قبل في أناس سابقين قبلهم ـ فالجزاء من جنس العمل!!

إنه انحراف مخيف ، وإقرار رهيب بسلطة أصحاب رؤوس الأموال ، بحيث إذا أنكر الفقراء أن يثوروا على أولئك المترفين ، فإن ذلك يعني ـ في الهندوكية ـ إعلان العصيان والتمرّد على الله!!

لذلك ما على الفقراء إلا تحمل الأخطاء السابقة لأرواحهم ، وهذا سبب عدم تقديمها حتى النصح والمواعظ للفقراء.

٤ـ عند الشيوعية والرأسمالية :

لن نتحدث عن الشيوعية لأنها أعلنت إفلاسها الفكري ، ولم تستطع أن تثبت إلا سنوات لا تتجاوز السبعين عاماً وهذا وحده يكفي كدليل على ما تعانيه.

أما عند الرأسمالية فقد حاولت حل المشكلة عن طريق فرض الضرائب على الأغنياء ، وعن طريق فرض نظام التأمين الاجتماعي ، لكن الواقع يؤكد فشل هذا النظام والدليل ما يقوم به مفكروهم ، من تحذيرات وصيحات واستغاثات للخروج من أزمات هذا النظام الذي كرّس الطبقية ، وجعل الإنسان كالآلة لاهثاً ليلاً ونهاراً!!

* * *

الفصل الثاني

الجمع بين النصيحة والإلزام!!

لم يكتف الإسلام بتوجيه النصائح للفقراء ، ولم يطالبهم أن يسكتوا على الظلم الذي وقع بهم ، إنما اعتبر من عبادتهم الصبر على الواقع، لكن مع عدم الإنكسار أمام هذا الواقع ومع عدم الاستسلام له... ومع عدم النظرة التقديسية للفقر!! إنه طالبهم بالصبر المبرمج : الذي يستجمع القوى ويدفع إلى الأمام ، ويحمي الروح والنفس من أمراضٍ مستعصية كالحسد... لينطلق الإنسان إلى الهدف الأسمى وهو مرضاة الله تعالى.

إن الإسلام يرفع اللافتة الناصعة التي كتب عليها بأحرف من نور : «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى**».

الإسلام الحنيف يطالب الأتباع بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ولا يكتفي بأن يعطي الناس حقوقهم فقط ، بل يتعدى ذلك إلى حقوق أخرى ، وهذا هو الإحسان.

ويطالب الإسلام بالإيثار : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

ويطالب بالمحبة : «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، لكن الميّزة العظيمة للإسلام ـ وهي ما تفرّد به ـ أنه مع هذه النصائح والوصايا أوجد التشريعات التي توصل إلى ردم الهوّة بين الأغنياء

والفقراء ، والتي تؤدي إلى التكامل الإلزامي ، من زكاة وهدية وهبة وميراث ، وسنعود للحديث عنها تفصيلاً .

وأوجد مع هذه التشريعات حارساً أميناً ألا وهو تربية النفس وتهذيبها ، لتقوم بتطبيق هذه الشرائع لا بسلطة الكرباج والحديد ، إنما بسلطة الوازع الديني والضمير المستيقظ ، وكل ذلك مستمد من مراقبة الله والخوف منه ـ سبحانه ـ

من هنا نفهم ماذا يعني تحريم الكنز . . وماذا يعني تحريم الإدخار في حالات الضيق .

وماذا يعني «**من كان له فضل ظهر فليعد على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له . . .**»[1] .

وماذا يعني : «**والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم**» .

وماذا تعني العدالة الاجتماعية؟ وماذا يعني التكافل والضمان الإجتماعي .

هذا هو ميزان الإسلام : لا خطب تشبع الجائع ، ولا نصائح تكسو العريان ، ولا فلسفات جدلية عقيمة تنتشل الفقراء من الأوحال التي يغرقون فيها .

ولا اللافتات العريضة تحلّ مشكلة ـ بل مشاكل ـ البائسين .

إنما الحلّ هو بالعمل الجاد للوصول إلى التخفيف من ترف المترفين ، والحدّ من تبذيرهم وإسرافهم ، والنظر إلى الفقراء على أنهم عباد من عباد الله جعلهم الله امتحاناً وابتلاءً للأغنياء ، ولن يتحقق ذلك إلا بتطبيق شريعة الإسلام تطبيقاً كاملاً ، لا في جانب الصلاة والصيام والمواعظ

---

(١) سبق تخريجه .

وإقامة حفلات الموالد والرقص في الذكر و.. إنما الإسلام أن يُؤخذ كله أو يترك كله ، أما أن يقوم أناس ـ كما يفعل غالبية المسلمين اليوم ـ فيأخذون السهل والذي لا يكلف ولا يتعب من الإسلام ويَدَعون كل ما له علاقة بالبذل والجهاد ، هذه هي عين المخادعة ، ألم يقل الله تعالى :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] .

إذن : لا بد من أخذ كل الجوانب في الإسلام : محراب ، وسيف ، ومصحف ، وبيت مالٍ ، ومصانع ، وكتب ، وطلاب علم ، ومخابر ، وزراعة ، وتجارة .

أما التبعيض ـ أن نأخذ بعضه ونرفض بعضه ـ فهذا المنطق يرفضه الإسلام وما الذي نراه اليوم من ويلات وويلات أصيب ـ وما زال ـ بها الجسد الإسلامي الواحد إلا من جراء هذا التبعيض!!

والواقع والاحصائيات والأرقام تؤكد ذلك كله ـ وسنعود للتفصيل في ذلك عند بحثنا في باب هل المسلمون فقراء أم أغنياء ؟

* * *

الفصل الثالث

إلى الفقراء

هذه طائفة من المواعظ التي يوجهها الإسلام للفقراء ، ضمن خطته الشاملة ـ بين النصائح والالزام التشريعي ـ

● **لا تحدسوا ولا تحقدوا**

من الأمور الملفتة للنظر أن الحسد لا يكون إلا في أمور تتعلق بالدنيا!! لذلك لن نجد أحداً يحسد صوّام النهار قوّام الليل ، إنما الحسد لمن جمع الأموال وملك العقارات والسيارات ، وقد عرّف العلماء الحسد : بأنه تمنّي زوال نعمة المحسود ، وفي ذلك اعتراض على مقسّم الأرزاق ـ سبحانه وتعالى ـ :

ألا قل لمن كان لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدب ؟
أسأت على الله في فعله ... لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

وما أجمل قول سيدنا رسول الله ﷺ في هذا الصدد :

«دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشَّعْر ، والذي نفس محمد بيده ، لا تؤمنوا حتى تحابّوا ، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم»[1] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٢)، وأحمد (١/ ١٦٥)، والبزار (٢٠٠٢)، والبغوي في شرح السنة (٣٠١)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٣٢).

أما الحقد : فهو بقاء أثر القبيح من المحقود في نفسه!!

وقد راح المصلحون والأدباء والمربون والسلف الصالح يحذرون من هذه الآفة ، من ذلك ما قاله الفاروق عمر رضي الله عنه : ما من أحدٍ عنده نعمة إلا وجدت له حاسداً ، ولو كان المرء أقوم من القدْح لوجدت له غامزاً ، وما ضرّت كلمة لم يكن لها خواطب.

وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شيء من الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى النار ؟

وقال أبو حاتم ـ رحمه الله ـ :

على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها ، فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء ، وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده ، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم على المسلم ، والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه ، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحساد في الأحشاء.

والحسد من أخلاق اللئام ، وتركه من أفعال الكرام ، لكل حريق مطفئ ونار الحسد لا تطفأ ، ومن الحسد يتولد الحقد ، والحقد أصل السر ، ومن أضمر الشر في قلبه ، أنبتَ له نباتاً مرّاً مذاقه ، نماؤه الغيظ ، وثمرته الندم.

ولا يوجد من الحسود أمان أحرَزُ من البعد منه ، لأنه مادام مشرفاً على ما خصصت به دونه لم يزده ذلك إلا وحشة وسوء ظن بالله ، ونماء للحسد فيه ، فالعاقل يكون على إماتة الحسد بما قَدَر عليه أحرص منه على تربيته ولا يجد لإماتته دواء أنفع من البعاد ، فإن الحاسد ليس يحسدك على عيب

فيك ، ولا على خيانة ظهرت منك ، ولكن يحسدك بما ركب فيه من ضد الرضا بالقضاء.

وبئس الشعار للمرء الحسد ، لأنه يورث الكمد ، ويورث الحزن ، وهو الإشفاء له ، والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بُهت ، وإن رأى به عثرة شمت ، ودليل ما في قلبه كمين على وجهه مبين ، وما رأيت حاسداً سالَمَ أحداً[1] .

وإن كان الحسد ولا بدّ فليكن فيما وجّه إليه الشارع : وهو ما يسمى الغبطة ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ ـ كما روى ذلك عمر رضي الله عنه ـ :

«لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاهُ مالاً فهو ينفق منه في الحق آناء الليل وأطراف النهار»[2] .

هذا هو توجيه الإسلام ـ خاصة للفقراء ـ : أن يبتعدوا عن الحقد والحسد الذي لا طائل من ورائهما ، فالقضاء والقدر سيجري والغني لن يصبح فقيراً إذا وجّهت إليه عيون الحاقدين والحاسدين ، وقد هذّب الإسلام ذلك وسما به إلى درجة أن حوّل الحسد إلى تنافس ، لكن لا تنافساً في جمع المال من الحلال والحرام إنما كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٢ـ٢٦] .

إنه تنافسٌ للوصول إلى درجاتٍ عليا في الجنة ، وإلى فوزٍ في رضا الله

---

(١) بتصرف واختصار من روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: ١٣١ـ١٣٩.

(٢) رواه الترمذي ومسلم وأحمد وابن ماجه، وللحديث روايات أخرى.

تعالى ، وهذا ما كان عليه سلف هذه الأمة : فهذا الفاروق يذهب ليأتي بنصف ماله ، وهو يريد أن يسبق أبا بكر ـ رضي الله عنهما ـ لكن ماذا حدث ؟!

جاء عمر بنصف ماله وقال : الآن أسبق أبا بكر ، فوضع أبو بكر ماله كله ، فقال عمر : والله لا أسبقه إلى خير أبداً!!

لكن المصطفى محمد ﷺ لم يترك أمر الحسد هكذا ، إنما وضع الحلّ المناسب ، فقال : «**ثلاثٌ لا ينجو منهنّ أحدٌ : الحسد ، والظنّ ، والطيرة ، وسأحدثكم بما يخرجُ من ذلك ، إذا حسدت فلا تُبغض ، وإذا ظننت فلا تحققْ ، وإذا تطيّرت فامضِ**»[1] .

وخوّف من انغماس الناس في هذا الداء قائلاً ـ صلوات الله عليه ـ :

«**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما تطفىء الماء النار**»[2] .

تلك هي النصائح ، فتعالوا أيها الفقراء وانظروا إلى هذا الكلام بعين الحقيقة ، واعلموا يقيناً أنه لا يضرّ ولا ينفع إلا الله ، وأن الرزاق موجود ، وأن الغنى الذي ترونه على غيركم ليس إلا فتنة لهم فطهروا قلوبكم من الحسد والحقد والبغضاء ، وعلقوا القلوب بعلام الغيوب ، وارفعوا شكواكم إليه وحده ، ناجوه ، ادعوه ، توجّهوا إليه ، فإنه يجيب دعاء المضطر إذا دعاه[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، وأبو الشيخ.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه.

(٣) للتوسع راجع كتابنا (مكارم الأخلاق عند ابن تيمية): ٢٤٠ـ٢٥٣.

● **حافظوا على كرامتكم ، ولا تتسوّلوا ، وتعففّوا ، واطمئنوا بما عند الله تعالى**

ذلك لأن المسألة فيها التشنيع الكثير ، وهي تؤدي إلى الذل وإهدار الكرامة ، وقد جاء التحذير شديد اللهجة على لسان سيدنا رسول الله ﷺ كما في رواية البخاري ومسلم والنسائي قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ :

«لا تزال المسألة بأحدكم ، حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزعة لحم!!»

وفي رواية أبو داود والترمذي والنسائي عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : **«المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ، ومن شاء تركه ، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان ، أوفي أمر لا يجد منه بُدّاً»**[1] .

وفي رواية أبي داود عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكَفَّلُ له الجنة ؟ فقال ثوبان : أنا ، فكان لا يسأل أحداً شيئاً» .

إذن : إذا نزلت بالفقير فاقة ما ، فماذا يفعل ؟!

استثنى الرسول ﷺ ذم المسألة في بعض المواقف ، كما في رواية الترمذي عن حبشي بن جنادة قال : سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول وهو واقف بعرفة ، وأتاه أعرابي ، فأخذ بطرف ردائه ، فسأله فيه ، فأعطاه إياه ، وذهب به ، فعند ذلك حُرِّمت المسألة ، فقال رسول الله ﷺ :

«إن الصدقة لا تحلّ لغني ، ولا لذي مرّةٍ سويّ ، لا تحل إلاّ لذي فقر مُدقع ، أو عُزم مفظع ، أو دمٍ موجع ، ومن سأل الناس ليثُري به ماله ،

---

(١) كدوح: خموش، ذي سلطان: أن يطلب حقه من بيت المال.

كان خموشاً في وجهه يوم القيامة ، ورضفاً يأكله من جهنم ، فمن شاء فليُقِلَّ ، ومن شاء فليكثر»[1] .

لكن ـ كالعادة ـ يريد الإسلام من أتباعه أن يكونوا أعزاء لا يطلبون إلا من مصدر العزة ، ولا يطلبون الرزق إلا من الرزاق ، ولا يطلبون الغنى إلا من مصدر الغنى وهو الغني ـ سبحانه وتعالى ـ من هنا قال رسول الله ﷺ : كما في رواية الترمذي : **«من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدّ فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجل»**

وهذا ما جعل الفاروق عمر رضي الله عنه يقول : عندما سمع يوم عرفة رجلاً يسأل الناس : (أفي هذا اليوم! ؟) وفي هذا المكان تسأل غير الله يا هذا ؟!

فخفقه بالدّرة وطلب منه أن لا يسأل إلا الله تعالى.

هذه هي مشكلة المسألة ، إنها تسوقه إلى الإهانة والذل ، وهي من الأمور التعيسة ، فلا بدّ من الصبر والتعلّق بالله ـ كما قال الإمام علي كرم الله وجهه ـ

تعلَمُنّ أيها الناس : أن الطمع فقر ، وأن الإياس غنىً ، وأن المرء إذا يئس عن شيءٍ استغنى عنه.

لا تسألنّ إلى صديق حاجة ... فيحول عنك كما الزمان يحول
واستغن بالشيء القليل فإنه ... ما صان عرضك لا يقال قليل
من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه ممطول
وأخوك من وفرّت ما في كفّه ... ومتى علقت به فأنت ثقيل

---

(١) مرة سوي: الشديد القوي السليم من الآفات.
ورضفاً: ج رضفة، وهي حجارة مُحماة.
ليثري: الإثراء: زيادة المال وتكثيره...

وما أجمل قول الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ :

قنعت بالقوت من زماني ... وصنت نفسي عن الهوان
خوفاً من الناس أن يقولوا ... فضل فلانٍ على فلانِ
من كنت عن ماله غنيّاً ... فلا أبالي إذا جفاني
ومن رآني بعين نقصٍ ... رأيته بالتي رآني
ومن رآني بعين تمٍ ... رأيته كامل المعاني

أما ابن حبان البستي فراح يحذِّر الناس من مغبّة الوقوع في شراك المسألة فيقول :[1] .

لو لم يكن في السؤال خصلة تذمّ إلا وجود التذلل في النفس عند الاهتمام بالسؤال وإبدائه لكان الواجب على العاقل أن لو اضطره الأمر إلى أن يستفّ الرمل ويمصّ النوى أن لا يتعرض للسؤال أبداً ما وجد إليه سبيلاً ، فأما من دفعه الوقت إلى ذلك فسأل من يعلم أنه يقضي حاجته أو ذا سلطان لم يُحرج في فعله ذلك ، كما لم يحرج في القبول إذا أعطى من غير مسألة ، ومن استغنى بالله أغناه الله ، ومن تعزز بالله لم يفقره ، كما أن من اعتزّ بالعبيد أذلّه.

وأعظم المصائب سوء الخلف ، والمسألة من الناس والهمّ بالسؤال نصف الهرم ، فكيف المباشرة بالسؤال ؟ ومن عزّت عليه نفسه صُغرت الدنيا في عينيه ، ولا ينبُلُ الرجل حتى يعفّ عما في أيدي الناس ، ويتجاوز عما يكون منهم ، والسؤال من الإخوان مَلال ، ومن غيرهم ضدّ النوال.

العاقل لا يسأل الناس شيئاً فيردّوه ، ولا يُلحف في المسألة فيحرموه ، ويلزم التعفف والتكرم ، ولا يطلب الأمر مدبراً ، ولا يتركه مقبلاً ، لأن فوت الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها ، وإن من يسأل غير المستحق

---

(١) في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: ١٤٤ـ١٤٩.

حاجة حطّ لنفسه مرتين ، ورفع المسؤول فوق قدره . . .

إذن : يأتي الأمر المحمود وهو العفة معاكساً للمسألة ، لذلك ربط النبي ﷺ العفة بالغنى ـ في مواطن كثيرة ـ منها قوله :

«**أهل الجنة ثلاثة : . . . منها ، ورجل غنيٌ عفيفٌ متصدّق**»[1] .

وقوله : «**من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفّ يعفّه الله**»[2] .

أما سؤال العبد للخالق ففي ذلك يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق ، والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع ، كقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ [الإنشراح : ٧ـ٨] .

وقول النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما :

«**إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . . .**»[3] .

ومنه قول الخليل : «**فابتغوا عند الله الرزق**» .

ولم يقل : فابتغوا الرزق عند الله ، لأن تقديم الظرف يشعر بالإختصاص والحصر كأنه قال : لا تبتغوا الرزق إلا عند الله .

وقد قال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء : ٣٢] .

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه ، ودفع ما لا يضره ، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه الله ، فله أن يسأل الله ،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وابن حبان وأحمد والطبراني وأبو يعلى، ومالك في الموطأ.

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي، وأبو داود، وابن حبان، والطبراني.

وإليه يشتكي ، كما قال يعقوب ـ عليه السلام ـ : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] .

وقول الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه ، أو يرزقوه ، أو يهدوه ، خضع قلبه لهم ، وصار من العبودية لهم بقدر ذلك[1] .

هذا الاطمئنان الحاصل في قلب المؤمن من رضائه بقضاء الله وقدره يجعله مستريحاً إلى كل ما يأتي به المستقبل ، ذلك لأنه توكل على الله تعالى ، وقام بالأسباب جميعها ، ثم سلّم الأمر لصاحب الأمر ـ عز وجل ـ ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

لذلك على الإنسان أن يواجه الدنيا ومتاعبها وكل ما فيها بشجاعة ويقين ، لا بفزعٍ وجزعٍ وتوتر أعصاب وتعاطي مخدرات وخمور و. . . وما أجمل قول الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ وهو يخوض المعركة :

أيُّ يـومـيّ مـن المـوت أفـرّ ؟ يـوم لا يُقـدر ؟ أو يـوم قُـدر ؟
يـــوم لا يُقـــدر لا أحـــذره ومـن المقـدور لا ينجـو الحَـذِرْ!

إن الجزع من الفقر والمصائب والأمراض و. . . فهذا ليس من ميزات المؤمن ، إنما المؤمن راضٍ قانع مستسلم لله ، لا لغيره ، سائلاً الله لا غيره. .

رافعاً لافتة كتب عليها بأحرف من نور :

---

(١) للتوسع راجع مكارم الأخلاق عند ابن تيمية: ١٤٧ـ١٥٥ .

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة : ٥١ـ٥٢] .

المسلم ينتظر النصر أو الشهادة في سبيل الله ، أما غيره :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة ٥٢] .

إنها الخطوط العريضة التي رسمها البيان الإلهي ، والتي تعطي الإنسان دليلاً واضحاً في كل ما يعترض مسيرة حياته ـ ولا مجال هنا لشرحها والإسهاب فيها ـ لكن لنعد إلى القرآن الكريم ، ونتمعنّ فيه وندرسه ونقف عند كل آية من آياته ، ففيها العبر والعظات لمن أراد أن يتذكر ويتفكر . . .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ـ١٥٧] .

إنها تشرح ما يتعرّض له الإنسان : جوع وخوف وفقر وفقد الأحباب.

فما الحل ؟ بشر الصابرين ـ اللهم اجعلنا منهم يا أكرم الأكرمين.

● **اصبروا على قلّة الحال ، فلكم الأجر الكبير . . وقدوتكم رسول الله ﷺ :**

هذا الكلام وهذه المواعظ ليست من قبيل التخدير المؤقت ، وليست من قبيل عدم الانطلاق نحو العمل ، إنما ضمن سياسة الشريعة الإسلامية في الجمع بين الأمور كلها : أن تعمل . . وتعمل . . وتتوكل . . وتكدح في سُبل الحياة ، لكن إن لم يُجْدِ ذلك كله ولم ينفع فليس للفقير إلا الصبر ، كما يقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وقوله ـ ثناءً على أهل الصبر ـ :

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقوله معلناً محبته للصابرين : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

وقوله مخبراً بأن الفوز والنجاة من كل مكروه ، وبالتالي دخول الجنة هو جزاء الصابرين :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

وقوله مخبراً على أن الصابرين هم الأئمة في الدين :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وقد شرحتُ الآيات الكثيرة الواردة في هذا الموضوع في كتابي الأخلاق الإسلامية للناشئة ، الجزء الثالث : ٧ـ٤٦ لمن أراد الاستزادة والنفع .

هكذا ـ أيها الفقراء ـ فالصبر فيه الفوائد العظيمة ، وقد لخصها رسول الله ﷺ بقوله : «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كلّه خير ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[1] .

وقوله : «**الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله**»[2] .

---

(١) رواه مسلم وأحمد والدارمي والبغوي والبيهقي والبزار وأبو يعلى.
(٢) رواه الطبراني والبيهقي.

وقوله : «ما رزق العبد رزقاً أوسع عليه من الصبر»[1] .

وقوله : «إن السعيد لَمَنْ جُنّب الفتن ـ قالها ثلاثاً ـ ولَمَن ابتُلي فصبر»[2] .

وقوله : «ثلاث من كنوز البر : كتمان الشكوى وكتمان المصيبة وكتمان الصدقة»[3] .

إذن : كيف يكون الصبر في البلاء الذي وقع للإنسان ـ كالفقر وغيره ـ

يقول ابن قيمّ الجوزية ـ رحمه الله ـ في ذلك كلاماً رائعاً : (الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج ، وتهوين البليّة بِعَدِّ أيادي المن ، وبذكر سوالف النعم ، هذه ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء :

١ـ **ملاحظة حسن الجزاء** : وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخفُّ حمل البلاء ، لشهود العوض ، وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وأن من رافق الراحة فارق الراحة ، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة ، فإن قدر التعب تكون الراحة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكريم الكرائمُ
ويكبر في عين الصغير صغارها وتصغرُ في عين العظيم العظائم

٢ـ **انتظار روح الفرج** : يعني راحته ونسيمه ولذّته ، فإن انتظاره ومطالعته وترقّبه يخفف حمل المشقة ، ولا سيما عند قوة الرجاء أو القطع بالفرج ، فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من

---

(١) رواه الحاكم.
(٢) رواه أحمد وأبو داود.
(٣) رواه الطبراني.. ولمزيد من تفصيلات ذلك يراجع كتاب: جامع الأصول لابن الأثير الجزري: ٩/ ٦٣٦.

خفي الألطاف ، وما هو فرج معجل ، وبه وبغيره يفهم معنى اسمه اللطيف . .

٣ـ تهوين البليّة : وذلك بأمرين :

أ ـ أن يعدّ نعم الله عليه وأياديه عنده ، فإذا عجز عن عدّها ، وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه ـ بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه ـ كقطرة من بحر . . .

ب ـ تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه ، فهذا يتعلق بالماضي ، وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال ، وملاحظة حسن الجزاء ، وانتظار روح الفرج يتعلق بالمستقبل ، أحدهما في الدنيا والثاني يوم الجزاء) .

نعم ـ أيها الفقراء ـ لستم أنتم وحدكم الذين ابتليتم بهذه المشكلة ، فقد ابتلي قبلكم أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ!!!

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه فقال : ما أشبع النبي ﷺ أهله ثلاثة أيامٍ تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا!!

وأسند أبو نعيم في الحلية إلى رسول الله ﷺ قوله : **«إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملآى ، وما ترك عبدٌ أكلةً يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة»**

وروت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال : **«أديموا قرع الجنة يُفتح لكم فقالوا : كيف نديم قرع باب الجنة ؟ قال : بالجوع والظمأ»**

وعلى هذا الخط المحمدي سار الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام وآل البيت الأطهار ثم التابعون ومن جاؤوا من بعدهم ، إن وُجد الأكل أكلوا ، وإن لم يجدوه صبروا ناظرين إلى ما عند الله من حسن جزاء الصبر[1] .

---

(١) للتوسع يراجع إحياء علوم الدين : ٣/ ٢١٣ .

وما أجمل نقل بعض أقوالهم في ذلك :

قلت للفقر : أين أنت مقيم ؟ قال لي في عمائم الفقهاء!
إن بيني وبينهم لإخاءً وعزيزٌ عليّ ترك الإخاء!

ويشير آخر إلى التلازم بين الفقر والفقه فيقول :

إن الفقيه هو الفقير وإنما راء الفقير تجمّعت أطرافها

ويشمخ آخر على الفقر ومنازله إلى درجة غريبة :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فقال الصبور : يا صبرُ صبرا!![1]

هكذا كانت أحوالهم ، تعبٌ وفقر ، لكنهم كانوا أبطالاً فثبتوا وصبروا وقنعوا ورضوا ، آملين بما عند الله من جنان ورضى ، ولذلك تركوا الدنيا وطلّقوها طلاقاً لا رجعة بعده ، فأتتهم صاغرةً ذليلة.

أما نحن فقد لهثنا وراءها لُهاث العطشان إلى الماء ، ولهاث الجائع نحو الطعام وركضنا فيها ركض الوحش في البرية ، لكنها أسرعت أمامنا.. فلا نحن نلناها ، ولا نحن تعلّقنا في الآخرة ونعيم الله!! ولا حول ولا قوة إلا بالله..

فمتى سنعتبر ؟ ومتى سنعود إلى سيرة الرعيل الأول ، مرددين معهم :

إذا بليت فثق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تيأسنّ فإنّ الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته فما ترى حيلةً فيما قضى الله

---

(١) للتوسع في ذلك راجع: وفيات الأعيان: ١/١٧٣، تاريخ بغداد: ١٤/٢٤٤، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر: ٧٠، مناقب الإمام أحمد: ٣٩٥، ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض: ٣/٢١٢، تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي: ٢/٦٣١، توضيح الأفكار للصنعاني: ٢/٢٥٤، طبقات الشافعية الكبرى: ٢/٤..

وقولهم أيضاً :

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله عند الإلـه وأنجـاه مـن الجـزع
من شدّ بالصبر كفاً عند مؤلمه ألـوت يـداه بحبـلٍ غيـر منقطـعِ

● **ازهدوا واقنعوا وكونوا أغنياء بما عند الله :**

حيمنا يتحدث الإنسان عن هذه النصيحة اليوم ـ وقد غرق الناس إلى الآذان والأذقان بالدنيا وملذاتها . . وراحوا يلهثون ليلاً ونهاراً للحصول على متعها وشهواتها ـ يبدو الحديث كأنه من عالم آخر : كأنه من الأساطير . . لكن لا بدّ من سوق عددٍ من الأمثلة الحيّة التي تجسد هذه الخصلة لتكون دليل عملٍ لنا :

روى الإمام أحمد بسنده الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصيرٍ ، قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه ، وإذا أنا بقبضةٍ من شعيرٍ نحو الصاع ، وقرظ[1] في ناحيةٍ من الغرفة ، وإذا إهابٌ ـ جلد ـ معلّق ، فابتدرت ـ ذرفت ـ عيناي ، فقال : ما يبكيك يا بن الخطاب ؟!

فقال : يا نبي الله ، وما لي لا أبكي ، وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار ، وأنت نبي الله وصفوته ، وهذه خزانتك . .

قال : يا بن الخطاب ، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟

ولما وصل الفاروق . . ـ رضي الله عنه ـ إلى سدّة الحكم الإسلامي ،

---

(١) القرظ : حبّ كالعدس، يدبغ به الجلد.

راح التاريخ يحدثنا أحاديث عجيبة ، من ذلك ما رواه ابن سعد ، قال :

دخل عمر ـ رضي الله عنه ـ على حفصة ابنته ، فقدّمت إليه مرقاً بارداً وخبزاً ، وصبّت في المرق زيتاً ، فقال : أدمان في إناءٍ واحد! لا أذوقه حتى ألقى الله!! وروى أحمد ، وعبد الرزاق وابن عساكر والعسكري أن الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ دخل على ابنه عبد الله وإن عنده لحماً ، فقال : ما هذا اللحم يا عبد الله ؟

قال : اشتهيته ، فقال عمر : وكلما اشتهيت شيئاً أكلته ؟ كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كلّ ما اشتهاه.

أما الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فينقل لنا صاحب حياة الصحابة بسنده إلى مجمع بن سمعان التيميّ أنه قال : خرج علي بن أبي طالب بسيفه إلى السوق ، فقال : من يشتري منّي سيفي هذا ؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزاراً ما بعته!!

ويروي ضرار الصدائي قائلاً : أشهد أني رأيته ـ علي ـ في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ، يقف في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وإني لأسمع صوته وهو يقول : يا ربنا.. يا ربنا ، ثم يدعو ما شاء الله ، ثم يقول : يا دنيا! إليّ تغررت!! إليّ تعرضتّ! إليّ تشوّقت! ؟ هيهات هيهات.. غرّي غيري ، لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة بعدها!!.. إن عمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك يسير.. آهٍ.. آه من قلّة الزاد.. وبُعد السفر.. ووحشة الطريق!!

وهكذا كان حال أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ :

لما قدم عمر ـ رضي الله عنه ـ الشام ، تلقاه الناس وعظماء أهل

الأرض ، فقال عمر : أين أخي ؟ قالوا : مَنْ ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا : الآن يأتيك .

فلما أتاه ، نزل فاعتنقه ، ثم دخل عليه بيته ، فلم ير في بيته إلاّ سيفه وترسه ورحله ، فقال الفاروق : غيّرتنا الحياة غيرك يا أبا عبيدة!!!

ويأتيك خبرٌ فيه العجيب والغريب عن حال خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز : كان عمر بن عبد العزيز يصلي العتمة ، ثم يدخل على بناته فيسلّم عليهنّ ، فدخل عليهنّ ذات ليلة ، فلما أحسسنه ، وضعن أيديهنّ على أفواههنّ ، ثم تبادرن الباب ، فقال للحاضنة : ما شأنهنّ ؟

قالت : إنه لم يكن عندهنّ شيء يتعشَّينه إلا عدس وبصل ، فكرهن أن تشمّ ذلك من أفواههنّ . . فبكى عمر ، ثم قال لهنّ :

يا بناتي ما ينفعكنّ أن تعشَّين الألوان ويُمَرُّ بأبيكنّ إلى النار .

قال : فبكين حتى علت أصواتُهن ، ثمّ انصرف[1] .

بل ولو وصلت الحالة بكم ـ أيها الأحباب الفقراء ـ إلى أسوء حالٍ ، فاسمعوا ماذا يحدثنا الإمام السبكي صاحب الشافعية ، ثم قارنوا هل وصلت حالكم إلى ما وصلت حالهم ؟!

كان للمقرئ الفقيه الشيخ أبي الحسن عليّ بن أحمد عمامةٌ وقميصٌ بينه وبين أخيه ، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت وبالعكس .

ودخل إليه زائر فوجده عرياناً ، فقال :

نحن إذا غسلنا ثيابنا ، نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قـوم إذا غسلـوا ثيـاب جمـالهـم لبسوا البيوت على فراغ الغاسل!!

واسمعوا إلى ما حدّثنا به ابن خلكان في وفيات الأعيان ، قال :

---

(١) للتوسع راجع سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحيكم: ٥٦ـ١١٠.

أخبر محمد بن موسى بن حماد أن الإمام الترمذي أخبره عن نفسه : أنه تقوّت في سبعة عشر يوماً خمس حبّاتٍ ـ أو قال ثلاث حبّاتٍ ـ قال :

قلت : كيف عملت ؟

فقال : لم يكن عندي غيرها ، فاشتريت بها لفتاً ، فكنت آكل كل يومٍ واحدة!!![1] .

نعم إنها القناعة : بأن ترضى بما قسمه الله لك من متاع الدنيا ، وأن لا تنظر إلى ما للغير ، أما أقسام الزهد فهي ثلاثة ـ كما قال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله ـ

١ـ زهد الفرض : وهو الزهد في الحرام .

٢ـ وزهد الفضل : وهو الزهد في الحلال .

٣ـ وزهد السلامة : وهو الزهد في الشبهات . .

وكما قلنا في مكان آخر : إن الزهد والقناعة لا تعني ترك الدنيا ، إنما يعني ترك جعلها غاية ، وأن تُجعل الدنيا وسيلة نعبر من خلالها إلى رضوان الله تعالى . . لكن للأسف تاه من تاه في فهم حقيقة القناعة والزهد .[2] .

هذا ما نبغي الوصول إليه : القناعة والزهد في حطام الدنيا ، واللجوء والاستغناء لا بجمع المال ، إنما أن نكون أغنياء بما عند الله!!

---

(١) للتوسع راجع حياة الصحابة: ٢/ ٣١٠، وفيات الأعيان: ٣/ ٥، تاريخ الخلفاء: ١٢٩، وطبقات الشافعية: ٧/ ٢١٠، الورع: ٦٢، مختصر منهاج القاصدين: ٣٦٠.

(٢) وقد تحدثتُ عن ذلك طويلاً ـ وتفصيلاً ـ في كتابي الأخلاق الإسلامية للناشئة الجزء الثاني: ٥ـ٤٩.

وهل سمعتم بدعاء السجّاد زين العابدين ـ علي بن الحسين ـ رضي الله عنهم جميعاً :

اللهم إنك ابتليتنا في أرزاقنا بسوء الظن ، وفي آجالنا بطول الأمل ، حتى التمسنا أرزاقك من عند المرزوقين ، وطمعنا بآمالنا في أعمار المعمّرين فصل على محمدٍ وآله وهب لنا يقيناً صادقاً تكفينا به من مؤونة الطلب ، وألهمنا ثقةً خالصةً تعفينا بها من شدّة النّصب ، واجعل ما صرّحت به من عِدَتِك في وحيك واتبعته من قَسَمِكَ في كتابك قاطعاً لاهتمامنا بالرزق الذي تكفّلت به وحسماً للاشتغال بما ضمنت من الكفاية له ، فقلتَ وقولك الحق الأصدق ، وأقسمت وقسمك الأبرّ الأوفى : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات : ٢٢] ثم قلت : ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات : ٢٣] .

إنه اللجوء إلى الله ، والدعاء من الخاضع الموقن باستجابة الله له ، والاعتراف بانشغاله في الرزق المقسوم له ، فيا رب هب لنا يقيناً يكفينا من ذلك ، وثقةً تبعدنا عن التعب في اللهث وراء ذلك ، كل ذلك ينساب ضمن قالب أخّاذٍ وعجيب[1] .

إنه ترجمة حرفية لما قاله رسول الله ﷺ :

«إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا ، كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب»[2] .

وقوله : **«ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك ، وأن تكون في ثواب**

---

(١) للتوسع في ذلك راجع: ومضات من حيات الإمام السجاد ـ علي بن الحسين ـ للمؤلف باب دعاؤه ومناجاته.

(٢) رواه أحمد، والحاكم.

المعصية إذا أصبتَ أرغب منك فيها لو أنها بقيت. .»[1] .

● اعملوا ولا تكاسلوا ، وتوكّلوا ولا تواكلوا.

أخرج البخاري عن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» .

وأخرج البخاري والترمذي عن خولة الأنصارية ـ رضي الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن هذا المال خضر حلو ، من أصابه بحقه بورك له فيه ، وربّ متخوّضٍ فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار» .

وفي كنز العمال نجد : قال رسول الله ﷺ : «طلب الحلال كمقارعة الأبطال في سبيل الله ، ومن بات عيياً من طلب الحلال بات والله تعالى عنه راض» .

وفي الترغيب والترهيب ينقل عن سيدنا رسول الله ﷺ قوله : «طلب الكسب بعد الصلاة المكتوبة الفريضة بعد الفريضة» .

وينقل صاحب كنز العمال أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول : لأن أموت بين شعبتي رحلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله أحبّ إليّ من أن أقتل مجاهداً في سبيل الله ، وذلك لأن الله تعالى قدّم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين ، بقوله عز وجل :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

[المزمل : ٢٠] .

وهكذا فكل الأنبياء كان لهم الفخر أن عملوا وتعبوا وأكلوا من كسب

---

(١) رواه الترمذي.

أيديهم : فنوح عليه السلام كان نجاراً يأكل من كسبه ، وإدريس عليه السلام كان خياطاً ، وإبراهيم عليه السلام كان بزازاً ، وداود عليه السلام كان يصنع دروع الحديد ، وسليمان عليه السلام كان يصنع المكاتل ، وعيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه ، وسيد الكائنات محمد ﷺ كان يرعى الغنم[1] .

وهذا لا ينافي التوكل الذي قال فيه المصطفى صلوات الله عليه كما في رواية ابن ماجه : «**لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» . . لذلك عندما مرّ الفاروق عمر رضي الله عنه بقوم من القراء فرآهم جلوساً قد نكسوا رؤوسهم ، فقال : من هؤلاء ؟ فقيل : هم المتوكلون ، فقال : كلا ولكنهم المتأكِّلُون ، يأكلون أموال الناس ، ألا أنبئكم من المتوكل ؟ فقيل : نعم ، فقال : هو الذي يلقي الحب في الأرض ثم يتوكل على ربه عز وجل[2] .

وهكذا سار سلف هذه الأمة على هذا النهج : فهذا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كان بزازاً ، وعمر ـ رضي الله عنه ـ كان يعمل الأدم ، وعثمان ـ رضي الله عنه ـ كان تاجراً يجلب إليه الطعام فيبيعه ، وعلي ـ رضي الله عنه ـ كان يكسب على ما روي أنه أجر نفسه غير مرة ، حتى أجر نفسه من اليهودي في حديث فيه طول[3] .

لكن ضاع قوم بين حقيقة التوكل والتواكل ، والصحيح أن التوكل ـ كما أجمع القوم ـ لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد .

وقد نقل ابن القيم عن سهل بن عبد الله ـ رحمهما الله ـ أنه قال : من

---

(١) للتوسع راجع كتاب الكسب للإمام محمد بن الحسن الشيباني: ٣٥ـ٣٧.
(٢) كنز العمال: ٤/ ١٢٩.
(٣) للتوسع راجع سيرة ابن إسحاق: ١٩٤ وسنن الترمذي ٤/ ٥٩.

طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته ، وهذا معنى قول أبي سعيد : هو اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب.

ولقد قسّموا التوكل إلى درجات ، وجعلوا أعلاها التفويض لله تعالى ، وقالوا : هذه هي روح التوكل ولبّه وحقيقته ، لذلك كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله والرضى بعده ، فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية .

ولذلك كان النبي الأكرم ﷺ يتبرأ من علمه وحوله وقوته ، ويتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون ، ومن ثم يسأل حاجته إن كان فيها صلاح له عاجلاً أو آجلاً :

«اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم» ثم يقول :

«فإنك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، وأنت علاّم الغيوب»

ثم يقول : **«واقدُرْ لي الخير حيث كان ثم رضّني به»**[1] .

من هنا فهم الفاروق هذه الشعارات ، واستنبط أن العمل والجدّ والكسب من الصفات الحميدة المطلوبة في المسلم فراح يدندن حولها قائلاً :

إني لأرى الرجل فيعجبني ، فإذا سألت عنه فقيل : لا حرفة له ، سقط من عيني!! أما أولئك ـ المدّعون التصوف بهتاناً وزوراً ـ والذين لا هم لهم إلا أن يحدثوا الناس بأن الله مقسم الأرزاق.. وأن اللقمة التي كُتبت لك

---

(١) رواه البخاري وأحمد وابن ماجه والحاكم وأبو داود والترمذي والنسائي...

ستأكلها ولو كنت على خشبة الموت!! ولذلك فأنت لست مطالباً بالسعي والتحرك و.. فقد راحوا يجلسون في المساجد والزوايا ، وإذا سألتهم لماذا لا تعملون قالوا : دع الخلق للخالق!! إنه يرزق البهائم.. ويرزق الدودة الصغيرة في الصخرة الصماء في الليلة الظلماء أفلا يرزقنا ونحن نقيم ذكر الله! ؟

وهنا : أين أنت يا درّة عمر ؟!

لقد رأى واحداً من هؤلاء قابعاً في زاوية من زوايا المسجد ، يرفع يديه طالباً من الله أن يطعمه ويسقيه ويلبسه!!

فيصيح عمر ـ رضي الله عنه ـ بعدما انهال بدرته على رأس ذاك المتواكل : لا يقعدّن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضةً .

وهكذا فهم السلف الصالح من الأمة التفريق بين التواكل والتوكل ، وأيقنوا أن الدين الحنيف هو دين عمل ، ودين جهاد ، ودين عبادة ، ودين تحصيل للعلوم ، ودين تجارة ، واقتصاد ، وزراعة ، وحُكم وفنون حربية و...

والإسلام حارب الفراغ واعتبره أرضاً خصبةً للشذوذ والمشاكل ، وقد صدق من قال :

إن الشبـــاب والفـــراغ والجـــدَهْ مفســـدة للمـــرء أيّ مفســـده!!

● **اعلموا أن بعد عسركم هذا يسرٌ لا محالة!**

وهذا الانتظار للفرج يعتبره الإسلام عبادة يُجازى عنها الإنسان ، كما روى ذلك علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«انتظار الفرج من الله عبادة»[1] .

وما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«سلوا الله من فضله ، فإن الله يحبّ أن يُسأل من فضله ، وأفضل العبادة انتظار الفرج»[2] .

وما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له :

«واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً»[3] .

بل إن سيدنا عمر رضي الله عنه يصعّد الأمر إلى أعلى من ذلك ، فيروي عنه أسلم قائلاً : حُصر أبو عبيدة يوماً ، فكتب إليه عمر يقول : مهما تنزل بامرئ شدة يجعل الله له بعدها فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين . [4] .

حتى أن رسول الله ﷺ أعطى الأدوية المناسبة لجميع الكروب والهموم والضائقات ، من ذلك قوله :

«من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همٍ فرجاً ، ومن كل ضيقٍ مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب»[5] .

وقوله : «لا حول ولا قوة إلا بالله : دواء من تسعة وتسعين داء أيسرهم الهمّ»[6] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، وابن عساكر، والديلمي، والبيهقي.
(٢) رواه الترمذي، وابن أبي الدنيا.
(٣) جزء من حديث طويل رواه أحمد، والطبراني، والحكم، وأبو نعيم.
(٤) رواه البيهقي وابن أبي الدنيا.
(٥) رواه أحمد، والنسائي، وأبو داود، وابن أبي الدنيا، وأبو نعيم، والبيهقي.
(٦) رواه الطبراني، والبيهقي، وابن أبي الدنيا.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أوبلاء من أمر الدنيا دعا ربه ففرج عنه ؟ قالوا : بلى ، قال دعاء ذي النون : لا إله إلا الله أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[1] .

وعن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال : **«دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت»**[2] .

ثم يجمع رسول الله ﷺ الغم والهم والسقم والشدة والذّل والفقر ، في حديث جامع شامل ثم يعطينا الدواء الشافي لذلك كله فيقول :

«من أصابه غمّ أو همّ ، أو سقم أو شدة ، أو أزلٌ أو لأواء ، فقال : اللهُ اللهُ ، ربي لا شريك له إلا كشف ذلك عنه»[3] .

نعم أيها الأحباب الفقراء هذا هو الدواء لكل داء ، فهل لديكم أكثر من ذلك ؟ لكن قد يخطر ببال أحدكم أن هذا الكلام كلامٌ نظريٌ ، فأين تطبيقه العملي ؟!

جاء في كتاب الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا أحداث وقصص عن السلف الصالح تعطي الإنسان طمأنينةً وهدوءً لا مثيل لهما . . من ذلك ما رواه عن عبد الملك بن عمير قال : كتب الوليد بن عبد الملك إلى عثمان ابن حيّان المرّي : انظر الحسن بن الحسن فاجلده مائة جلدة وأوقفه للناس يوماً ، ولا أراني إلا قاتله ، فبعث إليه فجيء به ، والخصوم بين يديه ، فقام إليه علي بن الحسين ـ السجّاد ـ فقال : يا أخي تكلم بكلمات الفرج

---

(١) رواه الترمذي، والنسائي، والحاكم، وابن السني، وأحمد، وابن أبي الدنيا.
(٢) رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، والنسائي، وابن أبي الدنيا.
(٣) رواه أحمد، وابن ماجه، والنسائي، وأبو داود، وابن أبي الدنيا.

يفرّج الله عنك : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين . . .

فقالها ، فانفرجت الخصوم ، فرآه فقال : أرى وجه رجل قد اقترفت عليه كذبة ، خلّوا سبيله ، أما الشعراء والحكماء والبلغاء فقد ـ أدلوا في هذا المجال ـ دلوهم ، وتحدثوا بذلك من ذلك ما قاله أبو العتاهية :

هي الأيام والعبر ... وأمر الله يُنتظر
أتيأس أن ترى فرجاً ... فأين الله والقدر[1]

وما قاله همام بن غالب بن صعصعة ـ الفرزدق ـ :

ولما رأيت الأرض قد شُدّ ظهرها ... ولم يك إلا بطنها لك مخرجا
دعوت الذي ناداه يونس بعدما ... ثوى في ثلاث مظلمات ففرجا[2]

وما قاله الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ :

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم يُرَ لانكشاف الضرّ وجه ... ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوط منك غوث ... يجيء به القريبُ المستجيبُ
وكل الحادثات إذا تناهت ... فموصول بها الفرج القريبُ[3]

وما أجمل ما قاله شاعر وحكيم آخر ، يبيِّن لنا فيه أن الفرج لا بدّ أن يأتي بعد الضيق ، ويطالبنا أن نتوجه إذا ضاقت علينا الأرزاق إلى الرزاق الغني ـ سبحانه وتعالى ـ : فنطلب الرزق منه ، نحمده ، نشكره على كل حال ، نوقن أن في كل حركةٍ وتصرفٍ في الوجود له حكم وحكم ،

---

(١) ديوان أبي العتاهية : ٢١٩ .
(٢) ديوان الفرزدق : ١/١١٧ .
(٣) تاريخ بغداد ، وقد أخرجه ابن النجار بسنده .

فإن أعطى أناساً الكثير ـ من متاع الدنيا الفانية ـ فليس ذلك بسبب أفضليتهم ، وإن حرم آخرين فليس ذلك بسبب استهانته بهم !!

استرزق الله واطلب من خزائنه ... ولا تكوننّ مما ضقت في حرج
فأبعدُ الأمر ـ يا مولاي ـ أقربه ... وأضيق الحال أدناه من الفرج[1]

● **لا تحزنوا . . . فالإسلام فتح لكم أبواباً كثيرة للصدقة!!**

لئن مُنع بعض الناس ـ لحكمةٍ إلهية ـ من أن يملكوا أموالاً وعقارات ، كي يتصدقوا ببعضها فينالوا الجزاء الحسن من الله تعالى ، فمن عدل الله تعالى أن جعل في كثيرٍ من الأعمال ـ غير المالية ـ صدقةً تعدل ذلك ، وهي أعمال بسيطة لا تتطلب إنفاقاً ولا جهاداً ولا عملاً عضلياً قاسياً ، من ذلك ما قاله المصطفى صلوات الله عليه : «**على كل مسلم صدقة ، قال : قيل أرأيت إن لم يجد ؟ قال : يعمل بيديه ، فينفع نفسه ويتصدّق ، قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يُعين ذا الحاجة الملهوف ، قال : قيل له : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير ، قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة**»[2] .

وفي رواية أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«**كل سُلامى من الناس عليها صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، قال : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتُعين الرجل في دابته ، فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، قال : والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»[3] .

---

(١) للتوسع في ذلك راجع الأرج في الفرج للإمام السيوطي، أو مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والمنام للكلاعي، أو الفرج بعد الشدة للتنوخي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم، والسلامى: مفاصل الأنامل.

وفي رواية أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ :

«لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلقٍ»[1] .

بل زاد الرسول الأمر دقة فقال ـ صلوات الله عليه ـ :

«الكلمة الطيبة صدقة»[2] .

وقال : **«كل معروف صدقة»**[3] .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«لقد رأيت رجلاً يتقلّب في الجنة ، في شجرةٍ قطعها من طريق المسلمين ، كانت تؤذي الناس»[4] .

وله رواية أخرى قال : قال رسول الله ﷺ :

«بينما رجل يمشي بطريقٍ وجد غصن شوكٍ على الطريق ، فأخّره ، فشكر الله له ، فغفر له»[5] .

هذا شيء نزير من الأبواب التي فتحها الإسلام لتكون للفقراء بها صدقة ، وهم يستطيعون فعل أيّاً منها دون أن يكلفهم ذلك ، بالإضافة إلى بر الوالدين وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والسعي على الأرامل والمساكين . .

نعم ، هذا هو المسلم ـ سواءً كان غنياً أو فقيراً ـ شخصاً كاملاً ، وعضواً نافعاً في الأمة ، لا يُعرف عنه إلا الخير والفضل والبر ، إنه رافد

---

(١) رواه مسلم، والطلاقة: البشاشة والبشر.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم عن حذيفة.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي، ومالك في الموطأ.

من روافد البركة واليُمن ، إنه خُلق لتذليل الصعاب ، وجبر القلب الكسير ، ومسح دموع اليتيم ، والعون الدائم على مصاعب الدنيا . . . إنه لا يعرف البطش ولا الإجرام ولا يحبّ سفك الدماء ولا المقابر الجماعية . . ولا الهزال والمجاعات!!

إنه إنسان الله ، ربانيّ في تصوره ، محمديّ في أخلاقه ، صحابي في سلوكه ، تابعي في معاملته ، مسلمٌ مسلمٌ ؟!

إنه نخلة باسقةٌ ، كل ما فيها نفع ، إنه مثال حيّ لقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٤ـ٢٥] .

إنه يضع نصب عينيه لافتةً يرفعها أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ مكتوب فيها قول سيدنا رسول الله ﷺ : «**على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة**» وتحتها يقول أبو ذر : يارسول الله : من أين أتصدّق وليس لنا أموال ؟ وتحتها يقول المصطفى : «**من أبواب الصدقة : التكبير ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وأستغفر الله ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوك عن طريق الناس والعَظْم والحَجَر ، وتهدي الأعمى ، وتُسمع الأصمّ والأبكم حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك**»[1] .

وفي الجانب الآخر للقضية :

نجد تحذير من سيدنا سول الله ﷺ من أمور ـ قد يحسبها الإنسان تافهةً ـ لكنها في ميزان الله كبيرة قد تحرم الإنسان من دخول الجنة ، وهذه

---

(١) مسند الإمام أحمد.

الأمور يستطيع الفقير ـ دون أن يبذل شيئاً في سبيلها ـ أن يتجنّبها من ذلك قوله صلوات الله عليه :

«ليس منا من خبّب امرأة على زوجها»[1] .

وقوله : **«ليس منا من غشنا»**[2] .

وقوله : **«ليس منا من لطم الخدود ، وشقّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية»**[3] .

وقوله : **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**[4] .

ولنقتف آثار سيدنا عبد الله بن عباس عندما فقد بصره في أواخر عمره . . فلم ييأس ولم يقنط إنما رأى شيئاً آخر فقال :

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما ففي لساني وسمعي منهما نورُ
قلبي ذكيٌّ ، وعقلي غير ذي دَخَلٍ وفي فمي صارم كالسيف مأثورُ

● **لا تبكوا على ما فات . . ولا تدعوا التوافه تغلبكم!!**

حينما يطالعنا القرآن الكريم بأخبار الأمم السابقة ، لا يكون ذلك من باب التسلية ، أو من باب تجديد الأحزان ، أو فتح الجروح الماضية ، إنما يعيد النظر إلى الماضي من باب العبر والذكرى ، كما أخبر سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

ولذلك لو أن واحداً من الناس كان غنياً ثم افتقر ، أو أنه ولد في بيئة

---

(١) رواه المنذري، وخبّب: أي أفسد.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه الترمذي.

فقيرة ، هل يتحسر ويندم . . ؟ ثم لو أنه لطم الخدود ، وشقّ الجيوب على ذلك الحظّ ، هل يتغيّر حاله ؟!

أبداً ، بل يجب أن يتأقلم مع واقعه ، وينظر إلى الأمر بنظرة تحليلية هادفة يبغي من وراء ذلك الاستفادة من أخطاء الماضي ليتخطاها ، ويستفيد من الصحيح في الماضي ليزيد عليه ، ثم يكرّس الجهود ليتابع مسيرة الحياة .

وهذا كله ترجمة صريحةٍ لقول سيدنا المصطفى صلوات الله عليه :

«استعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قُلْ : قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان» .

لكن هناك أمرٌ آخر يحدثنا عنه الشيخ محمد الغزالي وهو التوافه التي لا نعطيها بالاً ، إنما نأخذ الاستعدادات اللازمة للأشياء الكبيرة فيقول :

تهيُّب الإنسان للكبائر يبعده عن مواقعها وينجيه من غوائلها ، بَيْدَ أن المرء الذي يخشى على حياته أن يتناول جرعة كبيرة من السمّ لوضوح خطرها قد يستهين بتناول أجزاء دقيقة منها تكون مطويّة في أطعمة مكشوفة ، أو أطباق قذرة ، أو أيدٍ ملوثة ، أو ما شابه ذلك .

ومن ثمّ يصيب بدنه من العلل ما قد يُودي به ، مثلما تُودي به رصاصة قاتلة ، أو طعنة غادرة .

ولذلك روى الطبراني بسنده المتصل إلى رسول الله ﷺ أنه قال :

«إن الشيطان قد يئس أن تُعبد الأصنام في أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقّرات وهي الموبقات يوم القيامة» .

وكما تحدثنا ـ قبل قليل ـ فإن الإسلام فتح أبواباً كثيرة أمام الفقراء ليكسبوا من خلالها الصدقة والثواب ، كذلك حذرهم من الوقوع في أمور

ـ قد تبدو صغيرة ـ كما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وإن رسول الله ضرب لهنّ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً ، وأجّجوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها»[1] ، وما أجمل قول أحدهم :

إن الأمـــور صغيـــرهـــا ممـــا يهيـــج لـــه العظيـــم!!

وينقل الشيخ الغزالي عن (ديل كارنيجي) قوله : إن الصغائر في الحياة الزوجية يسعها أن تسلب عقول الأزواج والزوجات ، وتسبّب نصف أوجاع القلب التي يعانيها العالم!! بل إن قاضي أمريكي بعد أن عمل في القضاء مدة أربعين سنة ، وهو (جوزيف ساباث) صرّح قائلاً : لقد فصلت في أكثر من أربعين ألف طلاق فوجدت : أن التوافه دائماً وراء كل شقاء يصيب الزواج!!

وهذا الأمر كان النبي صلوات الله عليه قد رسم خطوطه منذ أربعة عشر قرناً إذ قال :

«لا يفرك ـ لا يكره ـ مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»[2] .

إذن على الإنسان أن لا يضخّم التوافه وأن لا يصوّرها على أنها مستحيلة

---

(١) مسند الإمام أحمد.

(٢) رواه مسلم.

الحلّ ، إنما أن يلتقط الصور الحقيقية الهادفة الغير مبالغ فيها. . . ليرتاح ويصل إلى السعادة[1] .

● **إن كان عليكم دَيْن فالله متكفّل به .**

هنا نكتفي بنقل أقوالٍ من أحاديث المصطفى صلوات الله عليه ، من ذلك ما نقله العلامة ابن الأثير في جامع الأصول :

٢٥٣٤ـ روى الإمام البخاري بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله**» .

٢٥٣٥ـ روى الإمام النسائي بسنده المتصل إلى عمران بن حذيفة ـ رحمه الله ـ قال : «كانت ميمونة تدَّانُ فتكثر ، فقال لها أهلها في ذلك ولامُوها ، ووجدوا عليها ، فقالت : لا أترك الدّين ، وقد سمعت خليلي وصفيّ ﷺ يقول : ما من أحدٍ يدّان ديناً يعلم الله أنه يريد قضاءه إلا أدّاه الله عنه في الدنيا» .

ومع ذلك فهناك آداب لوفاء الدين منها : الردّ الحسن والحمد والشكر في الأداء. . وفي ذلك أحاديث يقول الرسول ﷺ :

٢٥٤٩ـ روى النسائي بسنده المتصل إلى عبد الله بن أبي ربيعة ـ رضي الله عنه ـ قال :

«استقرض مني النبي ﷺ أربعين ألفاً ، فجاءه مال ، فدفعه إليّ ، وقال : بارك الله في أهلك ومالك ، إنما جزاء السلف الحمد والأداء» .

٢٥٤٨ـ روى النسائي بسنده المتصل إلى العرباض بن سارية رضي الله عنه قال :

---

(١) بتصرف واختصار من (جدد حياتك) للشيخ محمد الغزالي: ٦٩ـ٧٥.

«بعتُ من رسول الله ﷺ بَكْراً ، فأتيته أتقاضاه ، فقال : أجل لا أقضيكها إلا نجيبةً ، فقضاني ، فأحسن قضائي ، وجاءه أعرابي يتقاضاه سنَّه ، فقال رسول الله ﷺ : أعطوه سناً ، فأعطوه يومئذٍ جملاً ، فقال : هذا خير من سنيّ ، فقال : خيركم خيركم قضاءً» .

إذن من استدان وهو ينوي أن يؤدّي ذلك ـ والله مطلع على الصغائر ـ هيأ الله طريقةً ما لذلك ، ولن يفعل ذلك الإنسان بقوته وذكائه وشطارته ، لذا لا خوف من الدّين فالله المتكفل لذلك.

● **ارفعوا شكواكم إلى الله ، فهو يحبكم.**

ذلك لأن الشكوى إن رفعها الإنسان إلى من يستطيع الإجابة عليها ، كان في ذلك الفائدة العظيمة ، من هنا كان اللجوء إلى الله الرزاق الغني الذي خزائنه لا تنقص ولا تنضب.. والذي يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء[1] .

فيه الفائدة والطمأنينة والراحة النفسية والوصول إلى الغرض المطلوب.

وهكذا كانت سيرة سيدنا رسول الله ﷺ.. يدعو الله في كل لحظاته في الأمور الصغيرة والكبيرة.. يبث الشكوى إليه.. يطلب الحلول من عنده ، وعلى ذلك سار السلف الصالح من ذلك ، وسأكتفي بنقل واحدٍ من المقطوعات الرائعة عن الإمام علي بن الحسين ـ السجّاد ـ رضي الله عنهم جميعاً ، وهو يرفع الشكوى إلى الله :

---

(١) كما قال الشعراء:

أَخْلِق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

اللهم يا منتهى مطلب الحاجات ويا من عنده نيل الطّلبات ويا من لا يبيع نعمه بالأثمان ، ويا من لا يُكدّر عطاياه بالامتنان ، ويا من يُستغنى به ولا يستغنى عنه ، ويا من يُرغب إليه ولا يُرغب عنه ، ويا من لا يُفني خزائنه المسائل ويا من لا يُبدّل حكمته الوسائل ، ويا من لا تنقطع عنه حوائج المحتاجين ، ويا من لا يُعنّيه دعاء الداعين ، تمجّدت بالغنا عن خلقك وأنت أهل الغنى عنهم ، ونسبتهُم إلى الفقر وهم أهل الفقر إليك ، فمن حاول سدّ خلّته من عندك ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظنّها وأتى طلبته من وجهها ، ومن توجّه بحاجته إلى أحدٍ من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك فقد تعرّض للحرمان واستحقّ من عندك فوت الإحسان .

اللهم ولي إليك حاجة قد قصُر عنها جهدي وتقطّعت دونها حيلي وسوّلت لي نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجه إليك ولا يستغني في طلباته عنك وهي زلّةٌ من زلل الخاطئين وعثرةٌ من عثرات المذنبين ثم انتبهتُ بتذكيرك لي من غفلتي ونهضْتُ بتوفيقك من زلّتي ورجعتُ ونكصتُ بتسديد يدك عن عثرتي وقلت سبحان ربي كيف يسألُ محتاجٌ محتاجاً وأنّى يرغب معدمٌ إلى معدم فقصدتك يا إلهي بالرغبة ، وأوفدْتُ عليك رجائي بالثقة بك وعلمت أن كثير ما أسألك يسير في وُجدك وأن خطير ما أستوهبك حقير في وسعك وأن كرمك لا يضيق عن سؤال أحدٍ وأن يدك بالعطايا أعلى من كل يد .

اللهم فصل على محمد وآله ، واحملني بكرمك على التفضّل ولا تحملني بعَدْلك على الاستحقاقْ فما أنا بأول راغبٍ إليك فأعطيته وهو يستحق المنع ولا بأول سائلٍ سألك فأفضلت عليه وهو يستوجب الحرمان .

اللهم صل على محمد وآله وكن لدعائي مجيباً ، ومن ندائي قريباً ، ولتضرّعي راحماً، ولصوتي سامعاً، ولا تقطع رجائي عنك ، ولا تَبُتّ سببي

منك ، ولا توجّهني في حاجتي هذه وغيرها إلى سواك ، وتولّني بنُجح طلبتي ، وقضاء حاجتي ، ونيل سؤلي قبل زوالي عن موقفي هذا بتيسيرك لي العسير وحُسن تقديرك لي في جميع الأمور .

وصلّ على محمد وآله صلاةً دائمةً ناميةً لا انقطاع لأبدها ـ لمددها ـ ولا منتهى لأمدها ، واجعل ذلك عوناً لي ، وسبباً لنجاح طلبتي إنك واسع كريم ، ومن حاجتي يا رب ـ وتذكر الحاجة ، ثم تسجد وتقول ـ :

فضلك آنسني ، وإحسانك دلّني ، فأسألك بك وبمحمدٍ وآله صلواتك عليهم أن لا تردّني خائباً[1] .

لكن الذي يجب أن يعلمه الفقراء وأهل البلاء أن الله تعالى يحبهم ، ومن أحبّه الله استجاب دعاءه إذا دعاه ، وفرّج عنه إذا لجأ إليه ، وهذا مصداق قول المصطفى صلوات الله عليه : **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن صبر فله صبره ومن سخط فله السخط»** رواه الترمذي .

وكقوله : **«إن العبد لتكون له الدرجة في الجنة فما يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله بالبلاء ليبلغ تلك الدرجة»** رواه الطبراني .

وقوله : **«إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه»** رواه البيهقي .

وقوله : **«إن الله عز وجل يبتلي عبده بما أعطاه فمن رضي بما قسم الله له بارك الله فيه ووسّعه ، ومن لم يرض لم يُبارك له»** رواه أحمد .

وقوله : **«يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيُنصب للحساب ، ويؤتى بالمتصدق فيُنصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا يُنشر لهم ديوان ، ويصبّ عليهم الأجر صباً ، حتى إن أهل العافية ليتمنّون في**

---

(١) للتوسع راجع الصحيفة السجادية للإمام علي بن الحسين رضي الله عنه: ١٣٥ـ١٣٩ .

الموقف أن أجسادهم قُرضت بالمقاريض من حُسن ثواب الله لهم» رواه الطبراني .

وهكذا نصل إلى عهد أبي بكر الخوارزمي وقد ذهب المال كله من عنده ، فظنّ من حوله أن الأمر سيؤول به إلى الانتحار أو المرض العضال.

لكنه فاجأهم بقوله : الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال ، وعافى في الكبير وهو الحال ، ثم راح ينشد ، من ذلك قوله :

ولا عار إن زالت عن الحرّ نعمةٌ ولكنّ عاراً أن يزول التجمّل[1]

وهناك نصائح أخرى للفقراء يطول الحديث لذكرها مثل : الاقتصاد المعقول ، وعدم الاهتمام الكبير بالتزّين ، وذم الحرص والطمع ، وحُسن الظن بالله تعالى ، وتقديم الحمد والشكر للمنعم الموهب الرازق ـ سبحانه وتعالى ، ثم الورع عن كل حرام وما شابه ، وقد تحدثتُ عن ذلك في أكثر من موضع مثل كتابي الأخلاق الإسلامية في أجزائه الأربعة ، ومكارم الأخلاق عند ابن تيمية ، وواحة الصالحين وتحفة الحقائق في المواعظ والرقائق.

* * *

(١) التجمّل: الصبر.